منهج الاعتدال في وصايا الخلفاء الراشدين لقادة الفتح وأثره في نجاح الفتوحات وإرساء قواعد الأمن والسلم في البلاد المفتوحة

أ.د. الريح حمد النيل أحمد الليث

جامعة أم القرى- مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية

مستخلص

من يقلب صفحات حوادث تاريخ عصر الخلفاء الراشدين (11-41هـ) (ﷺ) في قراءة جديدة سيكتشف أن كل حادثة منها تشكل تاريخاً قائماً بذاته يستدعي إجراء دراسات علمية تغوص في أعماقها واستخراج لبها، لمعرفة ما حدث على وجه الدقة وتفسيره من منظور الوقت الذي حدث في استشعارا لقيمة العصر وادراكا لأهميته ومكانته المتفردة في التاريخ الإسلامي. من ثم جاء عنوان هذا البحث محاولة لقراءة تاريخية جديدة الهدف منه دراسة جانب مهم من الفتوحات الاسلامية، لم يتم تناوله بالصورة التي تعكس أهميته بالنسبة للأهداف التي من أجلها كان تسيير جيوش الفتح لفتح بلاد العراق والشام وأجزاء من أفريقية وغيرها ونشر الإسلام فيها وهو الجانب المتعلق بإرساء قواعد الأمن والسلم في البلاد المفتوحة، والذي من خلاله تتحقق الرسالة والغاية من الفتح الإسلامي لبلاد غير المسلمين ودخولها وأهلها طوعاً في الإسلام، بما يحقق مصالح أهلها في العيش في أمن وسلام على المدى الطويل متجاوزا المدى القصير لعمليات الفتح. فقد استن الخلفاء الراشدون (ﷺ) عنهم في وصاياهم لقادة الجند الذين وجهوا لفتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها، بوصايا الرسول (ﷺ)، سناً ماضيات اتَّبعوا فيها ولم يبتدعوا، وساروا على المنهج النبوي القويم والهدي النبوي المستقيم، في التوجيه والإرشاد والقيادة والضبط والتحكم والتتبع والرصد، فكانت النتائج العظيمة لتلكم الفتوحات العظيمة التي تجلت فيها معاني السلم والأمن في أسمى معانيها ومبانيها. يتبين من الوصايا أن الهدف الرئيس للفتوحات حمل الإسلام من موطنه الأصلي في شبه جزيرة العرب الى مواطن جديدة أحوج ما تكون له، وليس سوء الحالة الاقتصادية لبلاد الفاتحين كما أشيع وذاع، أو خوفا من انقلاب الألوية التي حسمت أمر الردة ومدعي النبوة، من جهة، وأن تمسك القادة والجند الفاتحين بوصايا الخلفاء زاد من اطمئنان أهالي البلاد المفتوحة للفاتحين وترك أثراً عظيماً في نفوسهم فوجدوا فيهم خير انسان، وفي الاسلام الحرية والعدالة والاحسان، من جهة أخرى. وقد نتج عن بحث الموضوع عدد من النتائج أهمها: لعبت وصايا الخلفاء الراشدين لقادة جيوش الفتح لنشر الإسلام دوراً حاسماً في انسيابية عمليات الفتح ونجاحها في أكثر من جبهة في وقت واحد وأدت إلى النتائج الباهرة التي تحققت. أسهم الالتزام الصارم بالوصايا في تسارع وتيرة الفتوحات كونها رسمت مسارات وطرق الفتح وأبانت للقادة والمجاهدين ما يجب عليهم عمله إثناء عمليات الفتح وما بعدها. ظهر من الوصايا أن الهدف الرئيس لفتح البلاد نشر الإسلام وليس سوء الحالة الاقتصادية لبلاد الفاتحين كما اشيع.

Abstract:

Whoever looks at the pages of the events of the history of the era of the Rightly-Guided Caliphs (1141- AH) in a new reading will discover that each event constitutes a self-contained history that calls for conducting scientific studies that delve into its depths and extract its core, to find out what happened precisely and explain it from the perspective of the time in which it happened, in order to sense the value of the era and realize its importance and unique place in Islamic history. Hence, the title of this research came as an attempt to read a new historical study aimed at studying an important aspect of the Islamic conquests, which was not addressed in a way that reflects its importance in relation to the goals for which the conquest armies were to conquer the countries of Iraq, the Levant, parts of Africa and others to spread Islam in them. This aspect is the aspect related to establishing the rules of security and peace in the conquered countries, through which the message and goal of the Islamic conquest of non-Muslim countries and their voluntary entry into Islam are achieved. This achieves the interests of its people to live in security and peace in the long term, exceeding the short term of the conquest operations.

The Rightly Guided Caliphs, in their commandments to the leaders of the soldiers who were directed to conquer the country and spread Islam in its lands, adopted the commandments of the Messenger, and followed the correct prophetic approach and the straight prophetic guidance in advising, guidance, leadership, control, tracking and monitoring. Therefore, great results were achieved for those conquests in which the meanings of peace and security were manifested in their highest meanings and

buildings.It appears from the commandments that the main goal of the conquests was to carry Islam from its original homeland in the Arabian Peninsula to a new citizen that needed it, and not the bad economic situation of the conquerors' countries as it was rumored and widely spread, or for fear of the coup of the brigades that decided the issue of apostasy and the claimant of prophecy, on the one hand. It was also found that the adherence of the conquering leaders and soldiers to the commandments of the caliphs increased the confidence of the people of the countries opened to the conquerors and left a great impact on their souls. They found in them the best human being, and in Islam freedom, justice and charity, on the other hand.A number of results were reached, the most important of which are:

1. The commandments of the Rightly-Guided Caliphs to the commanders of the conquest armies to spread Islam played a decisive role in the smoothness and success of the conquest operations on more than one front simultaneously and led to the impressive results that were achieved.
2. The strict adherence to the commandments contributed to the acceleration of the pace of conquests, as it charted the paths and methods of conquest and showed the leaders and the mujahideen what they should do during the conquest and its aftermath.
3. It appeared from the wills that the main goal of the conquest of the country was to spread Islam, and not the poor economic condition of the conquered countries, as was rumored.

توطئة:

الفتوحات الكبيرة التي تمت إذا قيست بالفترة الزمنية القصيرة التي استغرقتها تؤكد أنها كانت مدروسة ومنضبطة بضوابط الشرع والسنة، وأوامر ووصايا الخلفاء الراشدين، وأن الالتزام الصارم بتلك الضوابط والموجهات والخطط والاستراتيجيات قولاً وعملاً هو ما كفل للمسلمين الفاتحين النصر على جيوش أكبر قوتين عسكريتين آنذاك وهما الإمبراطوريتين الساسانية الفارسية والرومانية الشرقية، رغم الفارق في العدد والعتاد في معظم المعارك التي خاضتها جيوش الفتح الإسلامي ضد جيوشهما، فكانت النتيجة تضعضع قوة الدولة الرومانية البيزنطية بعد الهزيمة في معركة اليرموك (15هـ) وخسارتها ممتلكاتها في بلاد الشام، وسقوط الإمبراطورية الفارسية الساسانية(23هـ).

تجدر الإشارة إلى أن تلك الوصايا وفَّرت قدراً كبيراً من الوقت للفاتحين كونها شكَّلت موجّهات واضحة لقادة الفتح في مسيرهم الى البلاد المراد فتحها، من خلال وضع الخطط والاستراتيجيات التي تضمن تجميع الجهود البشرية واستغلال الإمكانيات المادية للقتال أمثل استغلال، لتحقيق النشر السلمي للإسلام بين أهالي البلاد المفتوحة، ذلك أن الجيوش أُرسلت لإزالة الظلم عن طريق نشر العدل، وإشاعة الأمن والسلم، تحقيقاً للجوهر من خلال المظهر في مظهر جديد لم يعرف عن الجيوش التي غالباً ما يرتبط ظهورها في أي مكان بالإرعاب والقتل والتدمير، فلا غرو أن كان على رأس أولويات الفاتحين من القادة والجند دعوة حكام البلاد وشعوبها قبل البدء في فتحها إلى الدخول في الإسلام سلماً، فأرسوا بذلك نهجاً جديداً في التعامل مع غير المسلمين أساسه الاختيار لا الاجبار، بين البقاء على دينهم أو الدخول في الدين الجديد وتوفير الأمن والحماية لهم في الحالتين، أو فتح البلاد عنوة في إطار خطة الفتح المرسوم وترك أهلها على دينهم ودفهم الجزية.

وصايا الأحياء للأحياء:

وصايا الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) تُعدُّ من وصايا الأحياء للأحياء وهي أدب وأمر بمعروف، ونهي عن منكر وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل، وقد أخبرنا الصادق الأمين (ﷺ) أن ربه أوصاه بتسع وصايا وهي في مجملها وصايا عامة هامة أوصانا بها (ﷺ) وألزمنا العمل بها.

يقول (ﷺ):»أوصاني ربي عزَّ وجلَّ بتسع، وأنا أوصيكم بهن: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً».[1]

أما الوصايا الخاصة المرتبطة بأمر محدد فنأخذ وصية واحدة من وصايا النبي (ﷺ) مثالاً نقيس عليه ما تلا من وصايا في عهود الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، وصيته (ﷺ) للصحابي الجليل معاذ بن جبل(18هـ) (رضي الله عنه) لما بعثه إلى اليمن، لما فيها من دروس عظيمة لكل من أراد أن يوصي من وسد أمراً وأوكل إليه القيام به، حيث بدأها (ﷺ) بقوله: «يا معاذ، أوصيك بتقوى الله العظيم، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، وخفض الجناح، ولين الكلام،،، إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ لا تفسد[2] أرضاً».[3]

يستوقفنا هنا أمران مهمان، الأول: تقوى الله، والثاني: عدم الفساد في الأرض، لنقيس عليهما

ما ورد في وصايا الخلفاء (ﷺ) التي مما سيتبين لنا لم تخلو وصية منهما صراحة أو ضمناً، فما ينطبق على معاذ بن جبل (ﷺ ينطبق على كل من يتولى أمراً من أمور المسلمين، حتى يعلم أن الهدف هو إصلاح ما فسد لا إفساد ما صلح، وهو ما أكَّد عليه صلى الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ (ﷺ)، مما يدل على عموم الوصية وعدم تخصيصها بشخص معيَّن أو وقت بعينه، إنما صلاحية العمل بها لمن يأتي من بعد.كما نهى (ﷺ) عن البغي[4]:بقوله: «وأنهاكم عن البغي، فإن الله تعالى يقول: {إنما بغيكم على أنفسكم}.[5].

تتعاظم أهمية النهي عن البغي عندما نعرف معاني كلمة بغي فندرك أن المراد منها ضدها (الهامش رقم 1) وهو ما يتناغم وينسجم ويحقق الهدف من نشر الإسلام في عصره (ﷺ) وفي عهود الخلفاء الراشدين، وهو إحلال العدل محل الظلم، والأمن مكان الخوف، والسلم بدل الحرب، وجعلها جميعاً واقعاً معاشاً يتنسم أهل البلاد المفتوحة فيها معاني الحرية والتحرر من قيود العبودية.

قال)ﷺ(يوصي عند عقد الألوية لقتال من كفر:» «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة، ولا وليداً».[6]

بهذا النهي المشدد: «لا تغدروا، لا تمثلوا، لا تقتلوا امرأة، ولا وليداً»، وضع صلى الله عليه وسلم القواعد الأخلاقية الإنسانية التي التزم بها الخلفاء الراشدون (ﷺ) في إدارة معارك الفتح بكل جدارة واقتدار رغم البعد الجغرافي بين عاصمة الخلافة وميادين المعارك، بالاعتماد على قادة أكفاء قادوا الجيوش وخاضوا غمار المعارك، تم اختيارهم بناءاً على معيار الكفاءة الشخصية.

وصايا أبي بكر الصديق (ﷺ):

قرَّ رأي الصديق (ﷺ) على إنفاذ جيش أسامة بن زيد(54-61هـ (ﷺ)[7] ووقف الخليفة الأول (ﷺ) في الناس وأوصاهم بعشر وصايا كلها تتعلق بوجوب الالتزام بضوابط الإسلام وآدابه أثناء الحرب[8] قائلاً: «يا أيها الناس أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:»لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعير إلا لمألكة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا لأنفسهم له...».[9]

من يطلع على وصايا أبي بكر (ﷺ) يؤمن أن الفتح الإسلامي لم يأت ارتجالاً كما قيل، أو استجابة لحماس عربي قومي مثلما قرر البعض، أو استغلالاً تلقائياً لانتصارات غير متوقعة على الفرس والروم جاءت في بدايتها دفاعاً عن النفس، وإنما كان وفق خطة مرسومة يستشعر القائمون على تنفيذها أن واجبهم تبليغ رسالة الإسلام للناس كافة بلا تمييز بين جنس وآخر، وتحطيم أي قوة تحول بينهم وبين ذلك، وقد خرجوا يحدوهم النصر أو الشهادة وهم في الوقت عينه على ثقة تامة بما بشرهم به الصديق المصدوق (ﷺ) من الفتح والتمكين في الأرض في كثير من الأحاديث، حتى روي عن أبي هريرة (ﷺ) قولة :»افتحوا ما بدا لكم فو الذي نفس أبي هريرة بيده، وما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحوها إلى يوم القيامة إلا أعطى الله سبحانه محمد (ﷺ)

مفاتيحها قبل ذلك».[10] ومن ثم سار الخليفة الأول (ﷺ) على خطى رسول الله (ﷺ) في نشر الإسلام ونقله إلى خارج النطاق الجغرافي المحلي لشبه الجزيرة العربية عن طريق الفتح المنظم وذلك بعد الانتهاء من القضاء على الردة، حيث قام (ﷺ) بتوجيه الجيوش الإسلامية لفتح العراق والشام ونشر الإسلام فيهما، وهو ما اقتضى مواجهة دولتي الفرس والروم في آن واحد، فتطلب منه جهوداً جبارة لحشد الحشود الكافية، ووضع الخطط الفاعلة لتنفيذ هذا المشروع الطموح، فهاتان الدولتان كانتا أكبر دولتين في عالم ذلك الزمان، وكانت العرب تسميهما «الأسدين».[11]

لما فرغ القائد العسكري العبقري الفذ خالد بن الوليد(21هـ) (ﷺ) من معركة اليمامة وقتل مسيلمة بن ثمامة الكذاب، بعث إليه الصديق (ﷺ) أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، ويأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم، وأمره ألا يكره أحداً على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مرَّ به من المسلمين.

تكمن أهمية هذه الوصية في تحديدها الخيارات الثلاثة الممنوحة لأهل البلاد المستهدفة بالفتح للدخول في الإسلام بالتدرج، أولها تأليفهم ودعوتهم إلى الله عز وجل أي ترك الأمر لهم كاملاً، ثانيها أخذ الجزية منهم إن امتنعوا عن الدخول في الإسلام فصار الأمر مناصفة بينهم وبين المسلمين بتركهم على دينهم وأخذ الجزية منهم، وثالثها وهو الأخير بعد استنفاد الخيارين الأول والثاني وهو القتال لفتح بلادهم عنوة وضمها لدولة الإسلام وليس إكراههم على التخلي عن دينهم والدخول في الإسلام، وهي خيارات تكشف بجلاء أن الإسلام لم ينتشر بالإكراه بل بالرضا والقبول من جانب أهالي البلاد المفتوحة الذين نعموا بحماية المسلمين لهم سواء منهم من اختار الإسلام ديناً ومن فضل البقاء على ديانته.

الجدير ذكره أن أبا بكر (ﷺ) عزز وصاياه بتزويد كل قائد من قادة الفتح بنصيحة خاصة، كانت هذه النصائح في مجملها تحث على التقوى والرفق بالجند ومشاورتهم، وعدم قتل الشيوخ والأطفال والنساء، وإكرام الرسل والصدق، والحذر والشجاعة ومسالمة المسالمين...الخ.[12] وهو ما نراه ماثلاً في وصية أبي بكر الصديق (ﷺ) الطويلة ليزيد بن أبي سفيان (ﷺ) لما وجَّهه إلى الشام، التي اقتطفنا بعضا منها بقوله: «فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك...واذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه... واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به...واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة...وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك...ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسدهم، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم ... ولا تجالس العبّاثين وجالس أهل الصدق والوفاء...واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواماً أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له».[13] وهي وصية حقيقة بأن تدرس، جديرة بأن تدرّس في كليات القادة والمؤسسات العسكرية في زماننا هذا لما حوته من موجهات من عمل بها ظفر ومن تركها خسر، يؤمن فيها (ﷺ) ويؤكد ويشدد في آخرها على ضمان حرية العبادة والمعتقد لغير المسلمين مذكّراً بضرورة المحافظة عليها

وترك الناس على دينهم، ومخافة الله فيهم، وعدم حملهم على غيرها حتى يقرروا بأنفسهم بعد فتح البلاد، إن رضوا دخلوا في الإسلام أو تمسكوا بدينهم ومعتقدهم.

وصايا أمير المؤمنين عمر (ﷺ):

قبل البدء في استعراض وصايا الفاروق عمر (ﷺ) للقادة الذين قادوا جيوش الفتح مواصلة لما بدأ في عهد الصديق (ﷺ) يحسن بنا اطلاع القارئ على ما بلغته الفتوحات الإسلامية في عهد ثاني الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ﷺ) حيث بلغت شمالاً روسيا وبلاد القوقاز وخراسان، وجنوباً أجزاء من الهند والجزيرة العربية والسودان، وشرق الصين، وغرباً دولة المغرب اليوم.[14]

فقد سارع فور توليه الخلافة (ﷺ) خلفاً للخليفة الأول سارع عمر إلى حث الناس للخروج إلى الجهاد في بلاد العراق، فأصابهم التثاقل في مبدأ الأمر لسماعهم بشراسة الجيوش الفارسية في القتال، ثم ما لبثوا أن أسرعوا إلى ما ندبهم إليه أمير المؤمنين عمر (ﷺ)، فكان من أوائل من لبَّى النداء أبو عبيد بن مسعود الثقفي (ﷺ)،[15] فولاه عمر (ﷺ) قيادة الجيش الذي ضم كثيراً من المهاجرين والأنصار، وأوصاه بأن يسمع من أصحاب النبي (ﷺ)، ويشركهم في الأمر، ولا يجبن مسرعاً حتى يتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي لا يعرف الفرص والكف.[16] وأرسل عمر (ﷺ) إلى سعد بن أبي وقاص(55ه) (ﷺ) يطلب منه القدوم إليه لقيادة الجيش[17] فلما جاء أسند إليه القيادة، ثم وعظه وأوصاه قبل مسيره بالجيش إلى العراق،[18] وأوصى من معه من الأجناد بقوله: «ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح»[19]. وهذا ما ميَّز وصايا الخلفاء الراشدين وجعل العمل بها ميسوراً وتطبيقها سهلًا لما تميزت به من وضوح وصراحة وصرامة وتحديد للمراد لا يقبل التأويل، أو تفسيرها بغير المراد منها،كما نرى في هذه الوصية التي تدل بوضوح على أن الهدف الأسمى من الفتوحات هو نشر الإسلام والمحافظة على كافة حقوق أهل البلاد المفتوحة، وإلزام الفاتحين على العمل بما أوصي به، ومن ينظر في مضمون هذه الوصية مقترنة بغيرها من الوصايا يدرك تمام الإدراك أن نشر الإسلام واستمراره وتوطينه في البلاد المفتوحة، يعتمد في الأساس على إرساء قيم التسامح والعدل، وإقامة ركائز الأمن والسلم، والقضاء على كل مظاهر الظلم التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلامي.

من الوصايا العظيمة المغزى والأثر كتاب الفاروق عمر (ﷺ) للنعمان بن مقرن المزني(21ه) (ﷺ) لما ولاه قيادة جيش فتح نهاوند، الذي يعتبر رداً شافياً على كل من يدَّعي أن فتح البلاد كان من أجل الغنائم التي كما يقال أن لأجلها أخرج أبو بكر (ﷺ) العرب المسلمين من جزيرتهم إلى بلاد العراق والشام: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، فأما بعد: فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسِر بأمر الله، وبعون الله،

وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب من مائة ألف دينار، والسلام عليكم».[20]

رجل واحد من المسلمين أحب إلى عمر من مائة ألف دينار، فأي رد أبلغ من هذا على من شكَّك وادَّعى أن نشر الإسلام لم يكن هو الذي جعل أبا بكر (ﷺ)، وهو خارج من حروب الردة، يخرج العرب الذين قضوا على حروب الردة وهم في كامل الاستعداد الإيماني والنفسي والبدني والمعنوي، لفتح بلاد خارج شبه الجزيرة العربية تكون قبلة جديدة للإسلام والمسلمين ينشرون في ربوعها الأمن والسلام. ولما توفي أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح متأثرا بإصابته بطاعون عمواس (18هـ) (ﷺ) قلَّد عمر (ﷺ) يزيد بن أبي سفيان (ﷺ) قيادة الجيش الإسلامي في الشام، وكتب إليه موصيا بالسير إلى قيسارية من فلسطين (على البحر) لفتحها، مما جاء في كتابة إليه: «أما بعد، فقد وليتك أجناد الشام كله،،، فاخرج فعسكر بالمسلمين، ثم سِر بهم إلى قيسارية، فانزل عليها، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك، فإنه لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها، وهم عدوكم وإلى جانبكم، إنه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته [ممتنعاً]، ولو قد افتتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام، والله عز وجل فاعل ذلك وصانع للمسلمين إن شاء الله».[21]

كتاب هو في ذاته فتح قبل الفتح يحمل في طياته وصية من جعل نشر الإسلام غاية لا تدرك إلا بالصبر والثبات والتوكل على الله،وصية من يخشى الله ويتقه ويخافه في أن يضحي برجل واحد من المسلمين أو يخاطر أو يغامر بحياته، وصية أمير المؤمنين عمر (ﷺ) إلى يزيد بن أبي سفيان (ﷺ) القائد يأمره بان لا يتعجل الفتح وليصبر إلى أن يأتي الفتح من الله: «فانزل عليها قيسارية، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك»، وصية توضح بجلاء أن الدافع من الفتح لم يكن مادياً البتَّة، ذلك أن الدافع المادي وهو الحصول على الغنائم يستوجب الإسراع في مهاجمة المدينة وإخضاعها والحصول على غنائمها، وليس النزول على المدينة وعدم مفارقتها أو بمعنى أدق محاصرتها.

اكتسب فتح مصر أهمية خاصة في مسار الفتوحات الإسلامية وشكّل نقطة تحول في استراتيجية الفتح الإسلامي باعتبارها بوابة الدخول إلى أفريقية نظراً إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي، الذي جعل منها نقطة محورية في نشر الإسلام في القارة الأفريقية، بعد نجاح الفتوحات في العراق والشام ، علماً أن العرب كانوا على معرفة وصلة بها قبل الإسلام، حيث تشير الروايات إلى أن فاتحها عمرو بن العاص(43هـ) (ﷺ) دخل مصر في الجاهلية -فيما يبدو- للتجارة، فعرف طرقها، وسبر أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحين قدم عمر بن الخطاب (ﷺ) في سنة (18هـ) الجابية من الشام -وهذا غير قدومه الأول لفتح بيت المقدس- فاتحه عمرو بن العاص (ﷺ) بفتح مصر، واستأذنه في ذلك.[22] وفي هذا يقول الرواة إن عمرو (ﷺ) قال لعمر (ﷺ): «يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر»، وحرَّضه عليها، وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين، وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب؛ فتخوَّف عمر بن الخطاب (ﷺ)

على المسلمين، وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب (ﷺ)، ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر.[23] ولا ريب أن دوافع المسلمين لفتح مصر كانت متوافرة، فهم يريدون نشر عقيدتهم، والتمكين لها في كل مكان، ومن الطبيعي أن يتجه المسلمون لفتح مصر بعد الشام -لاسيما فلسطين- نظراً للصلة القوية بينها، ثم إن المسلمين لن يأمنوا على أنفسهم في الشام ما دامت مصر تحت سيطرة الروم، ففي مصر جيوش ومسالح كثيرة للروم، وفي سواحلها مراكز الانطلاق لأسطولهم البحري الكبير الذي كان يجوب البحر المتوسط بغير منافس، ثم إن مصر كانت في ذلك الحين مصدر تموين كبير للدولة الرومية، وسيطرة المسلمين عليها – فوق أنه أمان لحكمهم في الشام– فهو إضعاف لتلك عموماً، وضرب لمركز إدارة المنطقة كافة على وجه الخصوص.[24] ولاستكمال الفتوحات بجِدّ ونشاط في تلك البلاد وما بعدها، ثم إدارة شئونها بعد ذلك كان لابد للمسلمين من مراكز يأوون إليها، وينطلقون منها، وفي الوقت نفسه يحصلون فيها على الخدمات الضرورية والمؤن، وتوفر لهم الراحة والسكن، بحيث تتوافق مع أمزجتهم وطبائعهم وثقافتهم، وتحميهم من التأثر بأخلاق أهل تلك البلاد وتلافهم. وتحقيقاً لهذه الغاية أمر عمر (ﷺ) بإنشاء قواعد عسكرية للمسلمين في البلاد المفتوحة، استحدثت في العراق البصرة والكوفة، وفي مصر الفسطاط؛ ولا شك إن إقامة مثل هذه القواعد قد ظهرت الحاجة إليها في عهد عمر (ﷺ) فخطوط المواصلات بين ميادين القتال التي يجاهد فيها المسلمون وبين عاصمتهم المدينة قد طالت مسافتها.[25] وقد نبَّه عمر (ﷺ) عند تأسيس هذه المراكز أن تكون طرف الصحراء، وبقرب الماء والمحتطب والمرعى، وألا يفصلها عن المدينة بحر ولا ماء، وقد أراد عمر (ﷺ) في البداية أن تكون هذه المراكز معسكرات فحسب، ويكتفي بالخيام والفساطيط،[26] لكن الناس ما لبثوا أن كتبوا إليه يستأذنونه في البناء بالقصب، فوافق على مضض؛ إذ كان يرى في البناء ما يوحي بالاستنامة إلى حياة المدن التي قد تهبط بالقوى، وتغري بالدعة.[27]

وصايا الإمام علي (ﷺ):

القاسم المشترك كما لاحظنا في وصايا الخلفاء الراشدين هو تقوى الله، فها هو رابع الخلفاء الراشدين الإمام علي (ﷺ) يوصي معقل بن قيس الرياحي (ﷺ)،[28] حين وجَّهه في ثلاثة ألف إلى الشام أن يتقي الله الذي لا بد له من لقائه، ولا منتهى له دونه، ولا يقاتلن إلا من قاتله.[29]وصية تنهي القائد ومن يقودهم عن عدم مقاتلة من لم يبدأ بقتالهم وهو ما يفهم من تقديم السلم على ما سواه، وهو ما لاحظناه منذ انطلاق عمليات الفتح بقيادة سيف الله المسلول خالد (ﷺ)لفتح العراق نشرا للإسلام خارج شبه الجزيرة العربية ازاحة للظلم وإشاعة العدل بين الناس، بدعوة العدو إلى التسليم بدين الإسلام السلام: أسلم تسلم. ونقرأ في وصية الإمام (ﷺ) لقيس بن سعد (ﷺ)[30] حين ولاه مصر ما يؤكد على التناغم في وصايا الخلفاء فيما يختص بفتح البلاد وكيفية إدارتها بعد الفتح بما يحقق الأهداف للفتوحات الإسلامية المتمثلة في بسط الأمن وشعور المواطن بالطمأنينة والعيش في سلام، بالإحسان إلى المحسن والاشتداد على المريب، والرفق بالعامة والخاصة.[31] وأوصى الإمام (ﷺ) شريح بن هانئ[32] لما جعله في مقدمته

إلى الشام أن يتق الله في كل صباح ومساء ويخاف على نفسه الدنيا الغرور.[33] وأوصى الامام (رضي الله عنه) مالك بن الأشتر،[34] حين ولاه مصر بجباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها،[35] وصية تظهر بجلاء تقديم مصلحة أهل البلاد على غيرها وذلك بجهاد من يعتدي عليها وإصلاح حال أهلها وعمارتها.

من ثم فان المرجعية في وصايا الخلفاء (رضي الله عنهم)، وصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي شكّلت القاعدة التي استند إليها الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) في وصاياهم لقادة الفتح الإسلامي، عليه فإن النظر إلى النتائج التي حققتها الفتوحات بمعزل عن تلك القاعدة، يمثل انفصالاً في النظر إلى العصر الراشد باعتباره امتداداً طبيعياً لعصر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو ما يجب النظر إليه بعين الاعتبار عند تناول مثل هكذا قضايا.

نتائج البحث:

-أبرزت النتائج الاهتمام الشخصي والوظيفي للخلفاء الراشدين بأمر الفتوحات وأظهرت الأهداف الرئيسة على رأسها الهدف الديني الشرعي منعا للتعدي وحفظا للنفس والمال وكافة حقوق أهالي البلاد المفتوحة من خلال المتابعة المباشرة لسير عمليات الفتح

لعبت وصايا الخلفاء الراشدين لقادة جيوش الفتح لنشر الإسلام دوراً حاسماً في انسيابية عمليات الفتح ونجاحها في أكثر من جبهة في وقت واحد وأدت إلى النتائج الباهرة التي تحققت.

أسهم الالتزام الصارم بالوصايا في تسارع وتيرة الفتوحات كونها رسمت مسارات وطرق الفتح وأبانت للقادة والمجاهدين ما يجب عليهم عمله إثناء عمليات الفتح وما بعدها.

ظهر من الوصايا أن الهدف الرئيس لفتح البلاد نشر الإسلام وليس سوء الحالة الاقتصادية لبلاد الفاتحين كما اشيع.

تمسك القادة والجند الفاتحين بوصايا الخلفاء زاد من اطمئنان أهالي البلاد المفتوحة للفاتحين وترك أثراً عظيما في نفوسهم فوجدوا في الإسلام الحرية والعدالة والسلام.

مصادر ومراجع البحث

المصادر والمراجع:

(1) ابـن الأثـير مجـد الديـن أبـو السـعادات المبـارك بـن محمـد (606هـ/1209م) الكامـل في التاريـخ، ط3، دار صـادر، بـيروت، 1417ه/1982م.

(2) الأمـير أسـامة بـن منقـذ: لبـاب الآداب، تحقيـق أحمـد محمـد شـاكر، مكتبـة السـنة، 1408هـ/ 1987م.

(3) ابـن حبيـش عبـد الرحمـن بـن محمـد (1111-1185) كتـاب الغـزوات الضامنـة الكاملـة والفتـوح الجامعـة الحافلـة في أيـام الخلفـاء الأول الثلاثـة: أبي بكـر الصديـق وأبي حفـص عمـر وأبي عمـرو ذي النوريـن عثـمان. تـح: سـهيل زكار، بـيروت: دار الفكـر للطباعـة والنـشر والتوزيـع، 1412ه/1992م.

(4) الحمـوي، شـهاب الديـن أبـو عبـد اللـه ياقـوت بـن عبـد اللـه الرومـي (626هـ): معجـم البلـدان، دار صـادر، بـيروت، ط2، 1995م.

(5) الذهبـي: شـمس الديـن أبـو عبـد اللـه محمـد بـن أحمـد بـن عثـمان بـن قَايْمـاز (748هـ): تاريـخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام، تـح: الدكتـور بشـار عـوّاد معـروف، دار الغـرب الإسـلامي، ط1، 2003م.

(6) - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م.

(7) الأزدي: محمـد بـن عبـد اللـه (230هـ/844م): تاريـخ فتـوح الشـام، تحقيـق عبـد المنعـم عامـر، مؤسسـة سـجل العـرب، القاهـرة، 1970م.

(8) الطـبري: أبـو جعفـر محمـد بـن جريـر(922/310م). تاريـخ الأمـم والملـوك، تحقيـق محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم، ط. دار سـويدان، بـيروت.

(9) ابـن كثـير: عـماد الديـن أبـو الفـداء إسـماعيل بـن عمـر (774هـ/1372م) خلافـة أبي بكـر الصديـق (مـن كتـاب البدايـة والنهايـة) ترتيـب وتهذيـب محمـد بـن صامـل السـلمي، ط1، دار الوطـن، الريـاض، 1418هـ

(10) الكلاعـي: أبـو الربيـع سـليمان بـن مـوسى (634هـ/1237م): الاكتفـاء بمـا تضمنه مـن مغازي رسـول اللـه والثلاثـة الخلفـاء، تـح: محمـد كـمال الديـن عـز الديـن عـلي، ط1، عـالم الكتـب، بيروت، 1417ه/1997م.

(11) المحـب الطـبري: محـب الديـن أبـو جعفـر بـن عبـد اللـه (694ه/1294م): الريـاض النـضرة في مناقـب العـشرة، تحقيـق عيـسى بـن عبـد اللـه الحمـيري، ط1، دار الكتـب العلميـة بـيروت، 1405هـ

(12) ابـن منظـور: جـمال الديـن أبـو الفضـل محمـد بـن مكـرم بـن عـلي الأنصـاري الرويفعـي (711هـ): لسـان العـرب، دار صـادر، بـيروت، ط3، 1414هـ

(13) ابـن هشـام: أبـو محمـد عبـد الملـك بـن هاشـم (218ه/733م): السـيرة النبويـة، تحقيـق شـهاب الديـن هـمام سـعيد ومحمـد أبـو صعيليـك، ط1، مكتبـة المنـار، الأردن، 1409هـ/1977م.

المراجع:

(1) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، القاهرة: دار الفكر العربي،1977م.

(2) أحمد زكي صفوت: جمهرة أشعار العرب في عصور العربية الزاهرة. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. 1352ه/1923م.

(3) بسيوني، محمود شريف: الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، 2003م.

(4) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت،1967م.

(5) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1415/1994هـ

(6) العمري: أكرم ضياء: عصر الخلافة الراشدة، ط1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، 1414هـ/ 1994م.

(7) محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ط3، دار الفكر، بيروت، 1397هـ/ 1977م.

(8) مصطفى مراد: الفتوحات الإسلامية، القاهرة: دار الفجر للتراث، 2009م/1430هـ

المصادر والمراجع:

(1) أسامة بن منقذ:لباب الآداب، باب الوصايا، ص5؛ عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 7.

(2) الفساد: نقيض الصلاح، فسد يفسد ويفسد وفسد فساداً وفسوداً، فهو فاسد وفسيد فيهما، ولا يقال انفسد وأفسدته أنا، وقوله تعالى: {ويسعون في الأرض فسادا}؛ نصب فسادا لأنه مفعول له أراد يسعون في الأرض للفساد، وقوم فسدى كما قالوا ساقط وسقطى، وأفسده هو واستفسد فلان إلى فلان، وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام. ابن منظور: لسان العرب، جـ3، ص 335.

(3) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 15.

(4) من معاني البغي: الظلم والتطاول والتجبر والتعدي على الناس، والخروج على القانون، ومجاوزة الحد، وورد النهي عنه في القرآن العظيم: الأعراف، 33؛ النحل،90؛ الشورى،39.

(5) يونس :23، عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 45.

(6) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 46.

(7) الطبري: تاريخه، جـ3، ص 226؛ ابن كثير: خلافة أبي بكر، ص 81.

(8) المحب الطبري: الرياض النضرة، جـ2، ص 47.

(9) بسيوني، محمود شريف: الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان.

(10) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ3، ص 306.

(11) الطبري: تاريخه، جـ3، ص 365.

(12) الأزدي: تاريخ فتوح الشام، ص 12، 15، 18؛ ابن حبيش: الغزوات الضامنة، جـ1، ص150-154؛ الكلاعي: الاكتفاء جـ3، ص 118، 120، 121.

(13) عبية: الكبر والفخر والنخوة، والغلول: السرقة من المغنم. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ3، ص404-405؛ عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، 1993م/1415هـ ص 59؛ مصطفى مراد: الفتوحات الإسلامية، ص323،322

(14) مصطفى مراد: الفتوحات الإسلامية، ص 330.

(15) أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي(41هـ): والد المختار وصفية زوجة ابن عمر، أسلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستعمله عمر وسيره على جيش كثيف إلى العراق، وإليه ينسب جسر أبي عبيد، وكانت الوقعة عند هذا الجسر، وقتل يومئذ أبو عبيد رحمه الله، ولا يبعد أن يكون له رؤية وإسلام. الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، جـ2، ص 80.

(16) الطبري: تاريخه، جـ3، ص 444-445.

(17) المصدر نفسه، جـ3، ص 483.

(18) الطبري: تاريخه، جـ3، ص 483-484.

(19) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ص225-227.

(20) الطبري: تاريخه، جـ4، ص 114-115.

(21) مات يزيد أيضا متأثرا بإصابته بطاعون عمواس. الأزدي: تاريخ فتوح الشام، ص 276، 274؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ3، ص312.

(22) ابن عبد الحكيم: فتوح مصر والمغرب، ص74.

(23) المصدر نفسه، ص 77.

(24) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول،ص 114-117؛العمري:عصر الخلافة الراشدة، ص343.

(25) العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص 228.

(26) روي أن عمر بن الخطاب، (t)، لما قدم الجابية خلا به عمرو بن العاص وذلك في سنة 18هـ فقال: يا أمير المؤمنين ائذن لي في المسير إلى مصر فإنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي أكثر الأرضين أموالاً وأعجز عن حرب وقتال، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو بن العاص يعظم أمرها عنده ويخبره بحالها ويهون عليه أمرها في فتحها حتى ركن عمر ابن الخطاب لذلك، ففتحها سنة 20هـ الحموي: معجم البلدان، جـ4، ص261-263.

(27) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية، ص 206.

(28) معقل بن قيس أو»عبد قيس» الرياحي، من بني يربوع (42-43هـ)، أدرك عصر النبوة، ثم كان من أمراء الصفوف وصاحب شرطة على يوم الجمل، فلما خرج المستورد بن علفة قائد الخوارج، جهزه المغيرة بن شعبة والي الكوفة في ثلاثة آلاف، وسيره إلى قتاله، فنشبت بينهما معركة بينهما على شاطئ دجلة، فتبارزا فقتلا معاً. الزركلي: الأعلام، جـ7، ص 217.

(29) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 119.

(30) قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي(60هـ) وال صحابي، من دهاة العرب، ذوي الرأي والمكيدة في الحرب والنجدة، وأحد الأجواد المشهورين، كان شريف قومه غير مدافع، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويلي أموره، صحب علياً في خلافته، فاستعمله على مصر. الزركلي: الأعلام، جـ5، ص 206.

(31) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 120.

(32) الفقيه أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي(78ه)، قاضي البصرين، تولى قضاء الكوفة لعمر وعثمان وعلى ومعاوية (رضوان الله عليهم) ستين عاما أو تزيد، أختلف في سنة وفاته وفي عمره عند وفاته. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط3، 101/4؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى،139/6.

(33) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء، ص 121.

(34) مالك بن الحارث النخعي(37ه): ملك العرب، أحد الأشراف والأبطال المذكورين، فقئت عينه يوم اليرموك، وكان شهماً، مطاعاً، زعراً، ألب على عثمان، وقاتله، وكان ذا فصاحة وبلاغة، شهد صفين مع علي، وتميز يومئذ، لما رجع على من موقعة صفين جهزه واليا على ديار مصر فمات في الطريق مسموما. الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ4، ص 35/34.

(35) عبد الحميد شاكر: وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ص 123.